نظرة فى المذهب الحيوى

بقلم الاستاذ محمد فريد وجدى بك

تركنا القارىء فى العدد الثانى عشر (ابريل ١٩٣٢) من «المعرفة» عند التصريح الخطير لكبار علماء البيولوجيا ، وهو أن الحياة أصل للمادة ، وليست المادة بأصل للحياة ، كما كان يذهب إليه أنصار المذهب المادى ، ولم نستنتج من هذا التصريح بعض مايحتمله ، لأنه يقلب كثيراً من المذاهب الفلسفية المتفرعة من المادية ، رأساً على عقب ، وقد يفضى إلى مأزق لاسبيل للخروج منها إلا بفتح طرق جديدة؛ ولكنا فى هذا العدد لانضن على القارئين بذلك ، ما دام لاسبيل لنا غيره فنقول :

إن ذهاب أمثل البيولوجيين إلى أن الحياة أصل للمادة ، وأنها هى التى تكون جثمان الكائن الحى ، من نبات وحيوان؛ وتبنيه على مقتضى حاجاته المعيشية والنوعية ، يوصل من طريق مستقيم إلى القول بأن هذه الحياة السابقة على وجود كائناتها لابد أن تكون مستمدة من أصل حيوى عام ، مالىء للكون ، يأخذ منه كل كائن حظا بقدر مايفيده فى تكوينه وبقائه .

فهل هذا الأصل الحيوى قديم أم محدث ؟ كيف يكون محدثا وهو أصل للمادة التى كان يذهب الماديون إلى أنها قديمة ؟ وإذا كان قديما فهل هو متمتع بعقل وإدراك وتدبير وحكمة ؟

إن المتشبعين بالفلسفة الحسية يصعب عليهم التسليم بهذا كله ، ولذلك لا يخوضون فيه ، ويدعونه بغير تحليل ، لا لشىء ـ فيما أرى ـ غير إيصاله من طريق منطقى إلى مقررات لا يودون الوصول اليها ، ولكنهم رغما عن هذا التفادى قد اضطروا لتلطيف مذاهبهم، وتخفيف صبغتها الالحادية ، فذهب (شوبنهور) الفيلسوف الالمانى ، إلى أن الأصل الأصيل فى وجود الكائنات عنصر روحانى ممتع بارادة ، ولكنه غير شاعر بذاته ، فالكائنات كلها مشبعة بهذا الروح العام، ومدفوعة به إلى حفظ وجودها ، وإلى التكمل على مقتضى مايحيط بها من القوى الكونية ، والنواميس العالمية ، وقد تعصب لهذا المذهب رجال يعتبرون من الطراز الاول ، ولكن أقصر الناس نظرا يرى فيه عدوانا على أبسط قوانين المنطق؛ وذلك أن « الارادة» تقتضى وجود الادراك ، فان غير الشاعر بذاته ، لايريد شيئاً ، ولا يتزع لايجاد شىء، فالقول بأن أصل الوجود إرادة مؤثرة غير شاعرة بوجودها عبث عقلى محض ، والذى دعا (شوبنهور) وتلاميذه إلى فرض هذا الفرض ، مافى الوجود من شرور ونقائص ، فقالوا إذا فرضنا أن هذه الارادة شاعرة بذاتها ، لوجب تحميلها تبعة جميع هذه الشرور والنقائص ، وهو مالا سبيل إلى القول به .

لهذا السبب لم ينتشر هذا المذهب الانتشار الذى يتناسب ودرجة صاحبه من العلم والفلسفة، وإن كان قد اشتهر شهرة عالية بعيدة المدى .

وفى هذا العهد جاء الدكتور (جوستاف جوليه) فذهب فى كتابه « من لا شاعر بذاته إلى شاعر بها» أن مذهب (شوبنهور) هو أقرب المذاهب الى العقل فى قيام الوجود والكائنات ؛ وأنه لاسبيل إلى افتراض سواه ، وقرر أن فى الكون أصلا روحانيا عاما قائما إلى جانب الأصل المادى فيه ، فكل كائن ينشأ فى الكون تلتحق به قبسة من هذا الأصل العام ، تربيه وتدفع به إلى التقدم ، وتهديه فى مضايق الحياة ومآزقها ، وتعمل على إيتائه بكل مابه حياته وقوامه واستمرار نوعه ، وإيصاله — بمساعدة نواميس الخليقة — إلى الكمال الذى أعدله ، وعنده أن هذا الأصل الروحانى العام مجرد من الشعور بذاته أيضاً ، وحجته فى تجريده هى حجة (شوبنهور) عينها ، فقد ذكر أن الحشرات مجتمعة بحيل لاقامة حياتها، من أشد ما يعرف من القسوة والاستهانة بالحقوق ، فان فرضنا لهذا الأصل العام شعوراً لوقعت تبعة هذه القساوات والأحابيل الشيطانية عليه هو ، وهذا ما لا يسلم به العقل ، فلا مخرج من هذا المأزق العقلى ، إلا بفرض تجرد هذا الأصل الروحانى من الشعور بذاته ، وقبوله للشعور بها فى الكائنات الراقية .

قال (جوستاف جوليه) : وقد نال الانسان من هذا الأصل الروحانى أكبر الحصص ، وظهرت فيه بعض ماركز فى هذه القوة من القابلية لبلوغ أقصى درجات الكمال ، واكتسب بتحيزها فى الانسان وجوداً مستقلا ، حاصلا على شخصية متميزة ، قابلة للخلود فى عالم الروح المحض ، بجانب أمثالها من الشخصيات التى سبقتها فى الوجود وفى بلوغ هذه المرتبة ؛ ولكن الناظر فى هذا الكلام على وجاهته يجد فيه مآخذ فلسفية لاتقف عند حد ، فهل المادة والروح قديمتان ؟ إن قيل نعم سئل ما هذه الثنوية التى لا تقوى على النقد ؛ فان ميل الطبيعيين اليوم متجه نحو وحدة الوجود، لانحو تعدده ، إما أن تكون الروح أصلا للمادة ، وإما أن تكون المادة أصلا للروح ، وإن سلمنا بما يقوله (أجوست جوليه) فعلى أى قانون يكتسب الجزء الروحانى، الذى فى الانسان شخصية موحدة ، ويجد فى حفظ وجودها ، على أن صاحبها إنسان وليس بحيوان ؟ وكيف تعقل ذاتها فيه ؛ ولم تكن كذلك من قبل ؟

الصحيح أن هذه مسائل فى منتهى درجات الخطورة، وهى فى الوقت نفسه من الأعضال ، بحيث يتسرب إلى الناظر فيها اليأس من حلها .

إلا أن كل هذا لايقطعنا عن مواصلة بحثنا الاول ، وهو أن المفكرين من رجال العلم اليوم قد انتقلوا من التعليل المادى البحت إلى تعليل روحانى لم يجدوا مناصاً منه ، وإن كانوا لم يستطيعوا ملء فراغاته الكثيرة الى اليوم .

نعم إنهم لا يقولون بأن الانسان خلق طفرة ، وأن الجزء الروحانى الذى حل به اكتسب هذه الشخصية بمجرد حلولها فى جثمانه ؛ ولكنهم يزعمون — وخاصة الروحيون منهم — أن الانسان آخر حلقة من سلسلة ، أولها متغلغل فى القدم ، وصل إلى حالته الراهنة على طريق التطور والتحول ، كما يفرضه أصحاب نظرية النشوء والارتقاء ، وأن الجزء الروحانى الذى لازمه وهو خلية بسيطة ، ما زال يصحبه فى جميع أدوار تطوره ، فطاف معه جميع حلقات الحيوانية حتى بلغ إلى مرتبة الانسانية ، فاكتسب فى جميع هذه التحولات شخصية موحدة ذات وجود مستقل ، وعقلية ناضجة .

فاذا قلت له : وكيف يكون ذلك وكل حى بعد أن يموت يذهب كل شىء فيه إلى أصله ؟ فمادته ترجع إلى الأرض ، وروحه تعود إلى عنصرها الروحانى الأول ، فكيف تعقل بعد هذا أن الجزء الروحانى فى الكائن الحى ، يتطور معه وهو غير باق إلا فى نوعه لا فى شخصه ؟ إذا قلت له هذا أجابك بأن كل كائن حى ينهدم فى مادته ، ولا ينهدم فى معناه وروحه ، بل يبقى على ما كان عليه فى عالم الروح حافظاً شكله ، ثم يعود فيلبس جسداً جديداً يتطور فيه ، فاذا عاوده التهدم انفصل الجزء الروحانى منه على صورته فى عالم المادة ، ثم عاد فتقمص جسداً جديداً وهلم جرا ، وهذا مطابق لمذهب (أفلاطون) فى قوله بالمثل العليا ، فانه كان يقول : بأنه ما من كائن على الأرض إلا له فى عالم الروح صورة روحانية ، وقد ثبت هذا المذهب بما ظهر لعلماء الروح اليوم ، من أن لكل كائن حى صورة ثابتة يعبرون عنها بالكليشيه ، لا تنحل بانحلال مادته ، ولا تزال تتردد على هذا العالم مرتقية فى معارج الكمال ، حتى تصل إلى أرقى ما يبلغه الانسان وهو آخر سلسلة الكائنات المادية ، فلا غرو أن يكتسب الجزء الروحانى الذى يلازم الانسان هذه الشخصية فى خلال كل هذه الأدوار ، ولا عجب أن يبقى مع عمار الملأ الأعلى من صفوة الناس فى حياة ليس لها انقطاع ، يعمل مع أمثاله العاملين الروحانيين فى تكوين الوجود والاشراف على عوالمه ؟

محمد فريد وجدى

لا يفوتك

اقتناء المعرفة

فهي المجلة المصرية الوحيدة التى تعنى بالعلوم والثقافة العربية